جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
EISSN: 2588-2384،ISSN: 1112-4377
المجلد: 29 العدد 03 السنة 2025
مجلة المعيار
EL MIEYAR

إشكالية الإنّية والغيرية
في رواية جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة لسعيد خطيبي

The Issue of Self and Otherness
"Burning Gardens of the East: A Journey in the Land of the Slavs" by Said Khatibi "

انتصار بلعيدي[1]
Intissar.belaidi@univ-khenchela.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/28 تاريخ النشر: 2025/06/01
Received: 28/01/2025 published: 01/06/2025

ملخص المقال:

تسعى هذه الجذاذة البحثية إلى دراسة تحليلية معمّقة للذات العربية محاولة فهم مورفولوجية الآخر الغربيّ الذي طالما احتدم النزاع بينهما لظروف سطّرها التاريخ الإنساني تحت ظلّ ثنائيات عديدة كالشرق/الغرب، التراث/الحداثة، المركز/الهامش وفي رحلة الكاتب إلى بلاد السّلاف يحاول تقديم وصف نقديّ للأماكن والبلدان التي زارها ومقارنتها بما هو موجود في العالم العربي عامّة و الجزائر خاصة والتّطرق لبعض جوانبها الاقتصادية، السياسية والثقافية وبذلك قد وضع المتلقي أمام معترك نقديّ ومقابلة بين الهوية العربية بخصوصية عيشها و البلقانيّ بضروب حياته، ومن هذا المنطلق تثار عدة تساؤلات: كيف عالج خطيبي هذه الجدلية أدبيا؟ وهل يروم من خلال متنه السردي إلى التوفيق بين موقفين حضاريين متضادين وجمعهما في كنف الإنسانية رغم الاختلافات؟، وهل وفق في ذلك من خلال التركيز على أوجه التوافق والتباين بين الثنائيتين في واقعهما التاريخي والاجتماعي؟ والأهم من هذا وذاك ماهي دلالات التفاعل بينهما؟

كلمات مفتاحية: الأنا، الآخر، إشكالية، دلالة.

Abstract:

This research aims to analyze the Arab self by exploring the Western "other," shaped by historical conflicts and dualities like East/West, tradition/modernity, and center/margin. During the author's journey through Slavic countries, he compares these nations to the Arab world, particularly Algeria, highlighting economic, political, and cultural aspects. The paper raises key questions: How does Khtibi address this literary duality? Does his narrative aim to reconcile opposing civilizations under a shared humanity? And has he succeeded in highlighting the similarities and differences between these dualities in their historical and social contexts?

Keywords: self; other; problematic; signification**.**

(1) جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)..

مقدمة:

تعدّ العلاقة بين الأنا و الآخر معضلة تاريخية ثقافية لم يفصل فيها بعد لغلبة الفكر الإقصائي التّصنيفي للبشر إلى طبقات و جنسنتهم بتعصب وانغلاق فكريّ شديد، والكاتب في روايته جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة يقدّم نظرة تقريبية لهوية الأنا الوافدة إلى البلقان فيعبّر عن آلام أمته وعلل انتكاسها بالمقارنة مع الأمة السلافية حيث يسلّط الضوء على من عاشوا نفس ما عاشه الجزائريون في فترة ما لكّنهم نهضوا ببلدانهم بمجرّد فكّ براثن الشيوعية المطوّقة لطموحاتهم و الدور للعرب الآن لحمل مشعل التّطور وقيادة العالم، هي رحلة لتشخيص داء من ينتسبون إلى العروبة بمعرفة من كانوا تحت لوائهم ثمّ تفرّغوا لترميم ثغرات أوطانهم رويدا رويدا و بالتالي يقال إنّ خطيبي قد أفصح عن معاناة الأنا بأسلوب غير مباشر من خلال ربطها بمعاناة الآخر مركّزا على الجدل بينهما فاسحا المجال أمام القارئ لاستكشاف كنه هذه الصلة والوعي بماهية الآخر، هل هي علاقة تعاضد وتآخي أم هي علاقة تناحر و تكالب؟ وما الذي وظّفه صاحب المتن؟ بغية إبراز التفاعل بين النموذجين العربي والغربيّ من نقاط تماس واتفاق أو اختلاف بينهما، كما ترك له سلطة التقدير حول إزالة الحساسيات العالقة بين الطرفين من الإبقاء على العصبية والحمية المتطرفة المؤيدة للأحادية والتقوقع النابذة للتعددية والانفتاح والمثاقفة التي لا تتحقق إلا بمعرفة المتشابهات بينهما وتعزيزها بعد تشخيص الاختلافات ومحاولة تقبلها. ومن أجل ذلك تمّ اتباع منهج وصفي سيميائيّ في استنكاه الدلالات واستنطاق المشاهد و إطلاق الدفقات الشعورية المكتنزة في السياقات السردية بدءا من العنوان ذي الأبعاد الضمنية، مرورا بفكّ مغاليق المعاني الحبيسة عن طريق عقد الموازنات بين السلافي والعربي الجزائري الذي يفترض أنه يتشابه معه في السياق التاريخي ومخلفات الحروب وتتوازى طرقهما في الجانب العقدي والفكريّ وصولا إلى إشكالية فعلية تتشاجب مع مناح نفسية وهي الانبهار بالغربيّ و تقديس منجزاته على حساب جلد الذات و الحطّ من قدراتها ما يمكن افتراض أنه من إحدى روافد الركود الحضاري المزمن الذي تقاسيه البلدان العربية.

قراءة في عنوان الرواية

تندرج الرواية موضوع البحث ضمن ما يعرف بأدب الرحلة وهو جنس قارئ لسطور حياة أمم العالم يبدي فيها الرحالة ما شغل تفكيره أو أثار اعجابه واهتمامه إبان الرحلة فيتعرّض بالوصف والتصوير لجوانب شتى كالمناظر الطبيعية، التقاليد والمعتقدات، التراث الماديّ وغير ذلك صابّا جام مشاعره في كتاباته مطلقا بعض الأحكام عمّا دلف سرائره دون تعميم أو اقصاء، أي أن الكاتب الرحالة يعرب عن حرص شديد على الإحاطة بتفصيلات دقيقة على اعتبار أن سمة الدقة وحيوية الوصف البعيد عن الجمود والرتابة من أبرز مؤشرات نجاح أدب الرحلة حيث يجعل القارئ يقرأ الرحلة بسلاسة دون أيّ تعقيد أو لبس في فهم المحطات في الرواية وبالتالي فإن أسلوب الرحلة يُلزم بتغذية حس الفضول دون توظيف مبالغ فيه للصنعة التي تدخل طابع الملل إلى كيان المتلقي ما يحول دون معرفة تتمة المغامرة الرحلية.

لقد زاوج الكاتب كنظرائه من الرحالة العرب بين الإفادة والمتعة وذلك بتجميع معلومات حول موضوعات ثرية متصلة بالجغرافيا، الأدب، العمران، الطبخ والموسيقى وما إلى ذلك من مواد قيّمة وقد استمد خطيبي مادته الأولية ليخطّ روايته الرحلية من مصادر متشعبة أهمها التاريخ والسياسة نظرا للعلاقات الديبلوماسية الجامعة بين دول حركة عدم الانحياز وبانتقاله إلى الشرق فهو يخطو خطى ثابتة نحو هتك براقع الجهل بأجواء تلك المناطق التي كانت جنائن غنّاء فالتهبت ما خنق شعوبها، ولو يفتح القارئ ذهنه

أكيد سيجد في اختيار العنوان دلالات جمة تقوده إلى معرفة حالة شبه جزيرة البلقان التي سيكون الكاتب بصدد معاينتها عن كثب وتقييد ملاحظاته في هذه الرحلة، حيث يعتبر العنوان إحالة مرجعية لفحوى المتن السردي ،فلم يختر اعتباطيا لأنه يقيم علاقات مع ثنايا الجسد الروائي أي أنّ له صدى في أرجاء الرحلة و ذلك من أجل أن يضع القارئ في حيرة حول معرفة الشرق الذي يحيل إليه المدخل حتى يفهم من عبارة "رحلة في بلاد الصقالبة" أيّة وجهة يعني، وفي العنوان دلائل عديدة : الجنائن ، الشرق الذي لا ينفك يكون حلبة صراع ويؤكد بالملتهبة فكلّ ما هو مشتعل يكون حتميا ممحوقا ، وفي التضاد والتناقض بين لون الجنة الأخضر ولون اللهيب الأحمر يكشف القارئ توترا في المنطقة ورمزية لحقبتين زمنيتين: حقبة الازدهار و حقبة الدّمار ما يولّد حدّة تركيز على ما بعد العنوان الذي تتشكل عنده خلفية عن الرواية لينطلق في فكّ شفراتها ومطابقتها مع توقعاته لتأويلات العنوان من فشلها، ويرى (قطوس، 2001، صفحة 119):"يظل العنوان مفتاحا تأويليا يرتبط أحيانا بالمضمون، لكنه قد يكون شكليا لا علاقة مباشرة له مع النّص، وأيّة علاقة يمكن أن يقيمها المؤوّل هي علاقة من صنع القارئ المثقف ذي الخلفية الفكرية والذهنية المتفتّحة"، ويمنح العنوان أكثر من دلالة يلمح موقف تعاطف الكاتب مع هذه البلدان كأنما برحلته هذه قد أيقظ مشاعر مخدّرة استفاقت بغتة على مصائب خلفتها الحرب المرتبطة ارتباطا وثيقا بالنّار، هنا يمكن الجزم على أن عنوان الرواية قد فتح باب القراءات الإيديولوجية والسياسية فتمنح للجنائن دلالة الرغد الذي عاشته البلقان في عهد الخلافة الإسلامية ونستل من الرواية الشاهد التالي كحجة على الرأي السابق (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 88): "كانت جنّة العثمانيين تواسي خيبتها الحاضرة بزراعة الأميات بنهاية عصر القحط"

أوجه التشابه والاختلاف بين الشرق والغرب ودلالاتهما

1.3أوجه التشابه ودلالتها:

- **التاريخ الدّموي:**

يقف التاريخ شاهدا على الاضطرابات والنزاعات السياسية والعقدية في أرجاء العالم بشقيه الشرقي والغربيّ التي أزهق لأجلها كثير من الأرواح البريئة، وما يشد الانتباه هو تضامن الجزائريين مع من تجرعوا عنوة من قدح الحرب والإرهاب فصار الموت الجليس الذي يؤنس وحدتهم وموضوع مسامراتهم يتحدثون عنه أكثر من مشاغل الحياة، ومن هنا كان حريا على الباحث الخروج إلى خلاصة مفادها أنّ ويلات الألم والمعاناة قد ربطت على قلوب الشرقي والغربيّ ووحّدت شتاتهم وليّنت صلابة خصوماتهم ودليل ذلك الترانيم التي كان ينشدها أطفال الكشافة الجزائرية من أجل فك الحصار عن سراييفو، وفي ذلك يقول السارد (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 74،75): "كنت كما لو أنني أعرفها وأعرف أهلها، ربما السبب يعود إلى الجرح الذي ما يزال ظاهرا على محياها، تراجيديا الحرب ألبستها ثوبا غير ثوبها، سنوات الطفولة في الجزائر كنا نغني لأطفال سراييفو، كنا مثلهم نعيش على وقع الموت والدّم وصور القتل اليومي ما جعل تقاربنا أمرا طبيعيا وضرورة تاريخية" ، أي أنّ ما لاقاه الشعبان من عنف وضغوطات قد أدت إلى مشروعية تكافلهما، إذن: قد جاءت الحرب مبرهنة على سذاجة التفرقة بين العربي والأجنبي باسطة نفوذ المطامع الشخصية الذي أودى بحياة شعوب إلى زرداب التّخلف رغم وجود ما يوثق الصلة بينهما ودليل ذلك حرب كرواتيا ضدّ البوسنة وهم

الذين عاشوا في كنف جمهورية يوغسلافيا سابقا ما يكفي لاعتبارهم شعبا واحدا لأنّ مأساتهم واحدة و مشاعر حزنهم متشابهة تؤججها لظى فقدان الأهل و الخلان فتذرف كلتا العيون في الجزائر و سراييفو عبرات مهراقة.

- **الخضوع لسلطان واحد:**

تندرج الجزائر والبلقان ضمن الإيّالات التابعة لسلطة الباب العالي، والذي ترك في المنطقة علامات تنبؤ بوجوده في وقت ولّى، ما يدين إقصاء الأنا المعطاءة المساهمة بمساعدات انهمرت على بلاد الصقالبة التابعة لها قديما نافية زعم انتهاكها لفضاء الآخر فالفتح الإسلاميّ بعيد كلّ البعد عن الغزو الدمويّ الهمجيّ، لعلّ ملامح الرسوم الباقية لا تزال شواهد ترسم ذكريات قد حفرت في قلب كلّ مدينة بلقانية، فنجد دلائل تشير إلى غائب ارتحل ولن يعود في اللغة ولسان تخاطب الناس اليومي، والجدير بالملاحظة أنّ الكلمات التركية العالقة في القاموس السلافيّ تشير حصرا على الأشياء الجميلة كالعمران والأكل التراثيّ واجتماعها كلّها يصوغ تفاصيل عاشها الصقالبة في رغد الأنا المسلم، إذن إنّ بتر الروابط التاريخية والاجتماعية مع الأنا ليس اختيارا ممنوحا بل الإبقاء عليها حتمي لعدم القدرة على إلغاء فعاليتها في والتّخلي عن فضلها انفلات من التاريخ العالميّ وانسحاب من مسرح الشفافية المزعومة من طرف الآخر ويستدل على ذلك بالنسق السردي الآتي (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015): "وتتقاطع بلاد الصقالبة مع بلاد العرب تاريخيا في خضوعها للدولة العثمانية...ولايزال الأثر العثماني ظاهرا إلى غاية اليوم في المنطقة كلّها" وينحو ذلك بالقارئ منحى أنّ الإسلام على اعتباره دينا وافدا على أوروبا الشرقية قد آلف بين قلوب السكان الأصليين والفاتحين من الأبطال المسلمين الغطاريف وما إن انتفى وجوده أو بالأحرى تقلّصت مساحة المتقيدين بتعاليمه حتى كسر سدّ المؤاخاة و دقت نواقيس الإخطار بهيجاء ضروس ستفتك بهم.

- **الاعتزاز بالهويّة:**

يقول الراوي (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 14): "واللغة تمثل عنصرا محوريا في المكوّن الهوياتي لكل واحدة من الدّول التي شملتها الرحلة، الدفاع عنها هو دفاع عن الأرض والتّاريخ والحقّ في الاستمرار"

يشترك الرجل العربيّ مع نظيره السلافيّ في فكرة التّمسك بمقومات الهوية على رأسها اللغة الأمّ فيعتبرونها محرّك حياتهم حيث يتواصلون بها بل أكثر من هذا فيدفعون الغالي والنفيس في سبيل الحفاظ عليها ولا يدخر زعمائهم كالرئيس تيتو جهدا في ترجمة أهمّ الأعمال الأدبية إلى اللغة الصربو كرواتية التي قد تعود بالنفع على شعبه في سبيل نزع أسمال التقهقر ومواكبة التطور دون الانسلاخ من حقيقتهم والتخلي عن الأم الرؤوم التي وحّدت صفهم من خلال التواصل بها وهو الحال بالنسبة للجزائري الذي استهجن سياسة الفرنسة فتمّ تأسيس جمعية علماء المسلمين على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي أكد على أهمية اللغة العربية في استرجاع الوطن المسلوب صادحا بشعار: الإسلام ديننا والعربية لغتنا و الجزائر وطننا"، فالعاقل من عرف أن للغة صولجان سيادة تعزّ من تمسك بها و تغدق على متحدثيها بأيديها السابغة و تذلّ من رأى في غير لسانه فخرا و حضارة فتدسّه دسا في مستنقعات التخلف أين يصبح هجينا لا هو تمكن من قواعد لغته ولا صار أعجميا له وزنه بين الأغراب.

- **معمارية بعض الشوارع والبنايات:**

انتهجت دول البلقان سياسة تلميع وسط العاصمة وإخفاء المناظر الدالة على نكبتها فيبدو المركز متحضرا يوحي برفاهية وسعادة ساكنيه غير أنّه مضرّج بعلامات الفقر والعوز، وهذا دليل على سوء استغلال المساعدات الممنوحة لحكومتها التي كرّستها

لإذكاء جذوة التنازع الديني بين الإسلام والمسيحية دون إعادة هيكلة البنية التحتية وتهيئتها (رداءة الخدمة والمرافق شبه المتهالكة ، انتهاز بعض من سكانها الفرصة للنّصب على السواح) فتكون بذلك قد أشغلت الشعب عن قضيته الأسمى ،وكأنّها تريد الانعتاق من ماضيها و التّجمل لتخالف نظيراتها من الدول اللاتي دمّرت الحرب ملامح مدنها لتقليد من سبقوه من جيرانه في أوروبا الغربية فدأبَ الفرد البلقاني على التّظاهر بشيء لا يعيشه لإبطان ندوب غائرة دون التّفكير في تضميدها ويظهر ذلك جليا عند تصوير الراوي لمشهد هطول المطر و بروز عاهات الطرق غير المعبدة هناك وما خلّفته زخات المطر من سخط النّساء وخوفهن من تبلل شعرهن و خراب التسريحة، والمشاهد لتلك الصورة لا يظن لوهلة أنّ هؤلاء المارة يمرون بظروف صعبة لا تمنحهم حتى هنيهات للتفكير في مظهرن الخارجي لأنّ ما يعيشونه مرّ ويبدو عليهم المكابرة والتهرب من الواقع القاسي بانتهاج مثل هكذا سلوكيات غريرة. وينحو كلّ هذا منحى سلبي قوامه الطبقية والتمييز بين شرائح المجتمع المصدوم أصلا جرّاء ظروفه المزرية فلم يجد عائلا يسنده سوى أن يقتات بما تجنيه السياحة من أرباح.

- **المستوى المعيشي:**

يصرّح صوت الكاتب الضمني (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 86): "الوضع العام لا يشجع على العيش الجيّد، وحسب أرقام متداولة، فإنّ نسبة البطالة بين الشباب تتجاوز 60 والدراسة لا تشكّل بالضرورة طوق نجاح، بسبب رفض المؤسسات الرسمية المحلية والدولية الاعتراف بشهادات بعض الجامعات والمعاهد"

يعانق الآخر والأنا نفس الحلم وتُصبّ على عواتقهما ذات الأتراح فتتشبث أعينهما ببزوغ فجر جديد ليتأتّى لهما ترتيب عبثية الحياة المفروضة عليهما وذلك بتمنيهما الحصول على دفئ أسري معنويّ بعد الاستقرار الماديّ فيستثمران ما تبقى من سنوات أعمارهما المختزلة بفعل الصراعات الدامية التي اضطرت كثير منهم إلى اللوذ بالفرار مستشرفا على مستقبل مشرق مع غريبة تمنحه شرعية البقاء تحت ظلّ سماء موطنها الذي يمنّ على بطاليه ببعض من عملته كي يقتاتوا عليها فاقدين شرفهم حينما خانوا وطنهم المنكوب وتخلوا عنه في محنته ليعيشوا أذلاء في غيره، وفي سراييفو ينحدر المستوى المعيشي لجحود جاراتها ونبذهم لها بل و تطويق أسوار المدينة بحصار عازل كأنّ بها وباء معد وهو وباء الفاقة فيخجلون من انتمائها إلى أوروبا الحضارة وكلّ هذا خوفا من اندلاع نيران سعير آخر لا يحمد عقباه فسلّموها للظلام الحالك بينما تتمتع أعينهم برؤية الحياة الملوّنة، وهذا يتطابق مع ما حدث في الجزائر حين تمّ افتراسها من قبل الإرهاب فألجمت جميع الحدود في وجهها وخفّت تعاملات شقيقاتها من دول المغرب و الشرق الأوسط معها حتى وصلت بهم الجرأة إلى وسم أيّ هجوم مسلح يهدد أراضيهم بالجزائريّ، وبالتّالي يمكن الخروج إلى خلاصة مفادها أنّ الأنا قد تمّ التخلي عنها من قبل الأنا نفسها ومن قبل الآخر الذي استغل فرصة ضعفها وانغلاقها فتعمّد تغييبها لتتمنع عن اكتشاف آفاق جديدة وتخصيب قدرات شبابها على النهوض بالأمة، مكتفية بمعالجة أزماتها الداخلية دون مثاقفة أو تفاعل مع الآخر الذي اعتبرته صديقا مزيفا أو بالأحرى عدوّا.

2.3 أوجه الاختلاف ودلالاتها:

- **الدين :**

لا يوجد ما يبرّر هذا التّطاحن، فبالنبش في غياهب التاريخ يتأكّد الباحث من أنّ سبب رفض الإسلام نابع عن رفض قاطع لكبح جماح النفس وشهواتها ففضل الصقالبة اعتناق المسيحية لتميّع تعاليمها المحرّفة وتقوية لأواصر العلاقة مع الإمبراطورية البيزنطية التي تدين بالأرثوذوكسية المسيحية ودليل ذلك قول الدكتور أحمد عطية في جدل الأنا و الآخر (عطية، 1997، صفحة 75): إلّا

أنّ فلاديمير استدعى رجال دين من الديانات السماوية الثلاث وأخذ يناقش مع كلّ هذه الوفود محتويات دينه ...ثم استدعى رجال الدين الإسلامي فشرحوا له تعاليم الدين الإسلامي و فلسفته فأعجبه ذلك وخاصة السماح بالزواج من أربع نساء، لكنه لم يعجبه الامتناع عن شرب الخمر وقال: راحتنا في خمرنا، كما لم يعجبه منع أكل الخنزير فتوجه إلى المسيحية وتبنّاها خاصة الارثوذكسية التي تنتمي إليها الإمبراطورية البيزنطية" ، وما يؤكّد الحجة السابقة هو اتخاذ كاتدرائية سان ستيفان كمعلم سياحي فاقدة بذلك قداستها عند المسيحين الذين لو كان لديهم ذرة غيرة على دينهم كما يزعمون لأقاموا الدنيا و ما أقعدوها تنديدا لما يقترفه السواح فيها من قلة احترام للمتعبدين هناك، حتى المسلمون هناك يختلفون عن الموجودين في البلدان العربية و يظهر هذا عن طريق استباحة احتكاك الجنسين في المسجد المنفتح بغياب ما يفصل بين النساء والرجال أثناء تأدية الصلاة، بل يتعدى الأمر إلى مجالستهم لبعض وتبادل أطراف الحوار والضحك وما إلى ذلك من تصرفات غريبة عن الدين الإسلامي و معتنقيه، و المتمعن في تاريخ بلاد الصقالبة يبرّر قلّة الالتزام بالضوابط الدينية بولادتهم وترعرعهم في رحم وسط تنصهر فيه أكثر من ديانة واحدة ما يجعلهم غير ملمين بكافة النصوص التكليفية الشرعية المحرمة لتجاوز الذكر حدوده مع الأنثى وغض بصره عنها والعكس صحيح، ويمكن الاستدلال على صحة هذا الرأي بالمقطع الوصفيّ التالي (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 68): "صادفت مجموعة من المراهقين من الجنسين، يجلسون في مجموعتين متفرقتين، يتحدثون ويضحكون...كانوا من أبناء المسلمين، لا يبدو عليهم حرج في هدم بعض الكليشيهات المنتشرة بين نظرائهم في دول عربية، وفي العلاقة الملتبسة بين الذكر والأنثى."

وقد أردف الكاتب فكرة التسامح والتعايش العقدي السائد في بعض المناطق السلافية حيث لم يمنعهم تخالفهم في المعبود والتمذهب من تقبّل أن يشتركوا في المساحة الجغرافية حتى وإن تحفّظ بعضهم عن التواصل واكتفى بالسكوت دون الحاق الأذية بغيره، وبالتالي يستشف أن الوطنية تسبق الملّة فيغيب التعصب المؤدي إلى عرقلة طقوس المسلمين والمسيحيين الدينية وإن لُمح بعض الطيش أحيانا كحرق المساجد أو الكنائس.

- **الوعي:**

أردف الرّاوي فرقا مفصليا بين الأنا والآخر وهو درجة الوعي إذ يتميّز السلافي بنظرة براغماتية نفعية تنقله من مستوى انتظار تغييرات من طرف الحكومة الوصيّة إلى مستوى تحمل مسؤولية تحسين الحياة الشخصية وفي ذلك برهنة يقينية على رؤيته الاجتماعية المفعمة بالثقة وردم مصطلح الخشية من الفشل، حيث استحدث لنفسه تتواءم ومعطيات واقعه، كما أنه لا يقع ضحية مستساغة للعبة السياسة فيأبى منح صوته لمن لا يبرهن عن جدارته في تسيير البلاد ويستبعد كلّ من خانته مقومات الريادة حيث لا يعترف الآخر بأية صلة سوى الكفاءة المهنية عكس الجزائري أو العربي الذي يحكم عاطفته وجشعه حين يصوّت وفق علاقاته الاجتماعية وصلة قرابته بالمترشحين، وقد نوّه السارد إلى مثل هكذا قضايا حساسة بحسرة ممزوجة بشعور العار لانتمائه إلى من يحكمون سلطة العرش والجهوية على النزاهة والشفافية و في ذلك يقول (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 72): "يا حسرتاه عليك يا جزائر الناس هناك لا ينظرون إلى البرامج السياسية بل يكتفون فقط بالنظر والتدقيق في اسم المترشح نسبه، و أصل المنطقة التي ينحدر منها...الانتخابات في بلاد لالة فاطمة نسومر تحركها وتحددها التوجهات القبلية والعشائرية، وهو الحال نفسه في دول الجوار "

في المقطع السابق إدانة صريحة للمتسببين في تقهقر أوضاع الجزائر و إشارة إلى أنّ الفساد وليد العصر حيث استطاعت لالة فاطمة نسومر قيادة المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي وتطويعه بصرف النظر عن كينونتها كأنثى، كما قد يتجه القول اتجاها مغايرا وهو انتساب البطلة إلى بلاد القبائل أين تؤسطر سلطة زعيمها فلا رأي بعد رأيه، كل هذا وذاك كان كافيا لحركية وانتعاش المجتمع السلافي في مقابل ركود واستسلام المجتمع العربي والجزائري الذي استفحل طاعون البيروقراطية فيه إلى الحدّ الذي جعل الالتحاق بركب الحضارة شبه مستحيل.

- **العادات :**

يقول الكاتب واصفا (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 34،35): " تبدو الحشمة عنصرا مهما في سلوكيات السلوفينيين والسلوفينيات فالنسوة يسترن جسدهن ما أمكن قبل النزول إلى الماء، كما لا نجد هناك شواطئ لسباحة العراة ...سلوفينيا بلد محافظ من الداخل " أي أنّ الالتزام بالاستتار و ذمّ التعرّي من علامات رقيّ الإنسان و من خصال الملوك و الملكات الذين يولون عناية فائقة بالمظهر المحترم مع تقديس حرمة الجسد الذين لا يعتبرونه سلعة مكشوفة يتأتى لأي كان الإطلاع على ماهيتها وهو الحال كذلك مع المسلمين الذين يخضعون لقرآن خالقهم و حديث سيّد البشر الداعي إلى اسدال الثياب على الأبدان والحياء و الحشمة وغيرها من الصفات التي تزيد من قدر الإنسان و تعليّ شأنه مؤكدة على تكريم الله تعالى له بزينة العقل فالحيوانات فقط التي خلقت مجرّدة من حليتها أمّا أبو الأنبياء آدم عليه السلام فقد طفق يخسف من ورق الشجر في الجنة ليواري عورته. كما تظهر سلوفينيا كغيرها من دول العالم الثالث المغيّبة عن الساحة الفكرية بحبّ شعوبها لأفيون كرة القدم ورغم ما كانت تبطنه من قلة اهتمام لكن احتفالاتها الصاخبة عند تأهلّ منتخبها لكأس العالم يشهد لها عن جهادها في سبيل رفع راية بلادها في المحافل الدولية حتى وإن تعلق الموضوع بالرياضة، إذن يلعب العزل دورا أساسيا في إخراج تلك الرغبة الكبيرة في العودة إلى الأمجاد التليدة والرفض الذميم للبقاء في القعر من أجل التصارع على العيش بكرامة.فالاشتراك في حب الكرة والمبالغة في اظهار الفرح عند انتصار الفرق المناصرين لها، تنسيهم ضغوط الواقع بالغوص فيما تحبّه النّفس ما يساعد على تتمة الحياة في دوامة الفقر وتلبية رغبة الانتشاء بلذة الانتصار وتشبّع الذات بهذه الدفقات الإيجابية التي تدفعها نحو البحث عن المزيد بالعمل في مجالات أخرى غير الرياضية.

إشكالية تقزيم الذات وتمجيد الآخر:

إنّ الأنا والآخر قضية واحدة متشعبة كون العالم يحتم عليهما الاحتكاك و التعامل بغية الإفادة والاستفادة و فكّ العزلة و التقوقع حتى تستمر الحياة وبالتالي كان لزاما عليهما التفاعل السّلمي والتّدافع الإيجابي لتحقيق هذا التوازن إلّا أنه ومنذ زمن تليد تفنّن الآخر في إذاقة الأنا ويلات مأساوية إثباتا منه لتفوّقه عليه وسطوته على متعلقاته الدالة على حضوره فترسّخ في لاوعي الأنا أنه المغلوب على أمره والمحكوم من قبل جلّاده الغربيّ الذي لم يترك له ثغرة للتخلص من تبعات استعماره فصارت المحافظ محطّا للسخرية ما يجعله يبتلع بنات شفاهه في كثير من المواقف التي تقتضي عليه التدّخل في حين أمسى المهووس التابع للغالب رمزا للحضارة والانفتاح، إذن يمكن تحميل ما سبق دلالات وجود أزمة هويّة وتشّوه النّظرة إلى الذات التي لم تكن كافية بمؤهلاتها لسيادة أرضها فصار الغربيّ بطلها لأنه استطاع فعل ما عجزت عنه و بالتالي لم تترك فرصة للتّشبه به و إن خالفته في البنية التكوينية النفسية والثقافية

وغيرها، وعند التّدقيق في هذه الجزئية تتجلى الأسباب التي أدّت إلى ذلك من بينها الغلّ الذي يكنّه بعض السلاف للعثمانيين الذين يعتبرهم غزاة غاشمين لا بناة دولة الحق الإسلامية، هذا العامل كان أساسيا في جعل الثنائيتين تتلاحمان حقبة من الزّمن رغم تنافرهما في الواقع الحالي حيث بالعودة إلى بعض مقاطع الرّواية موضوع البحث يتمّ الجزم بصحة هذا الرأي بسبب تشييد أحفاد أرطغل لسوق تجارية في باشتارجيا ما ساهم في انتعاش السياحة عندهم ناهيك عن المسجد الذي صار قبلة يتوافد عليها الأجانب من كل حدب وصوب، أضف إلى ذلك بناء جشر موستار التّجاري وكعلامة بيّنة على اعترافهم بمهارة المعماري الذي صممه بتلك الصلابة قاموا بإعادة ترميمه بعد قصف كرواتيا وفقا للنمط العثماني القديم، فلو كان الأتراك المسلمون بمثل وحشية المغول والتتار لدمروا و نكّلوا بالسكان غير أنهم أردوا المدن المفتوحة من البلقان جنة تحظى بنعيم وفير تقام شؤونها بقسطاس الإسلام المستقيم.

وهنا، تطرح إشكالية من يكون الأنا في نظر الغير حيث يلمّح الكاتب إلى بعض الفروقات الجوهرية التي تجعل الأمة العربية في ذيل العالم من بينها: اهتمام رؤساء العرب بجمع وتكديس المال والثّروة ويظهر هذا الحب في سطحية ما يقدمونها لنظرائهم من زعماء العالم ففي حين يموت شعوبهم من الحروب ينهمك هؤلاء في اقتناء أغلى الهدايا من ذهب وغيره من المعادن النفيسة، وعلى غرار العرب نجد الغرب مولع بكلّ ما يتوافر فيه الإبداع من منحوتات ، لوحات فنية وأغراض تفيض بشحنات ثقافية، وبالتّالي كانت نزعة التفاخر الشكليّ العربيّ في مقابل البساطة الغربية نقطة تحتسب للآخر المترفّع عن سذاجة التفكير المهتم بما يغذي روحه وينمي عقله ويتبدّى هذا الرّأي في دهشة الكاتب عند زيارته لمنزل تيتو غير المرفّه ما يعكس زهده بينما وجد مكتبة مفعمة بمؤلفات من شتى أصقاع الأرض ما عدا الكتب العربية، إذن ثاني نقطة يتفوق الغربي فيها على العربيّ هي نهمه للمطالعة وارتفاع نسبة مقروئيته .

لا يوجد ما يبرّر هذا التّطاحن، فبالنبش في غياهب التاريخ يتأكّد الباحث من أنّ عوامل الصراع واهية يمكن السيطرة عليها ويظهر ذلك جليا في ثنايا الرواية من خلال المقطع الآتي (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015، صفحة 42): "ما أثار انتباهي في قصر الزعيم هي المكتبة التي تكشف عن روح مبدع...يكفي أنه كان يجد وقتا ليقرأ وفي انتظار أن يخبرنا رؤساء العرب أيضا ماذا يقرؤون؟" أين يسعى البلقانيّ إلى مخاطبة السواح بلغة العالم المعاصر ألا وهي اللغة الإنجليزية رغم أن الزوار من جنسية روسية فهم يفهمون لغة بعضهم لاشتراكها في ذات المصدر (اللغات الهندو أوروبية) ولمتاخمتهم في الحدود الجغرافية، ولا يقف الأمر هنا فحسب بل يلمح تجرّد من الأنا الأوروبية الشرقية وانبهار بالآخر الأوروبيّ الغربي حتى انتهى به المطاف إلى تقليده في سفاسف تفاصيل حياته و يظهر هذا التطبيل في شخصية سبستيان المقلّد لكلّ ما استوردته بلاده من الغرب من مشتتات ثقافية فغيّر ملابسه، نوع الموسيقى والحفلات التي يحضرها، وقد يعود هذا الانغماس في الحضارة الغربية إلى رغبة السلافيّ في التّمرد على ضوابط الشيوعية ومحو همومهم بموسيقى صاخبة تعلو على صوت أفكارهم بمصيرهم وتطردها بعد استقلال سلوفينيا، في حين نجد أن الكاتب لم يتخلّ عن عاداته المعتاد ممارستها في الجزائر من تسكع في الشوارع، القاء التحية على الغرباء وشرب القهوة في المقاهي وهو بذلك لا يسعى بأيّ شكل من الأشكال إلى تلميع صورته أو الظهور بشخصية الآخر الذي يخشى التبلل بزخات المطر خوفا على بريستيجه وهيئته أمام أشباهه.

في المقابل نرى تهميشا واستحقارا يمكن تجزئته إلى قسمين: أولهما: دونية النظر إلى ذات الهويّة ويظهر ذلك في الاستغناء عن الأدب الشرقي في دور علم ومكتبات الغرب وقصر سكان تلك الرقعة الجغرافية على خدمتهم والاهتمام براحتهم أثناء زياراتهم لها من باب السياحة والتّرويح عن النّفس ويظهر ذلك في المقطع التّالي (خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، 2015،

صفحة 41): " رغم العدد الهائل من الكتب، لم أصادف اسم كاتب عربي واحد في المكتبة نفسها رغم العلاقات الجيّدة التي كانت تجمع تيتو مع قيادات دول عربية "

هذا من جهة، أمّا القسم الثّاني من فوقية الآخر عن الأنا يتبدّى في الإهانة التي تلقّاها الأدب الجزائريّ حينما وجد الرّاوي روايات رشيد ميموني بين أنقاض كتب منسية بعدم عرضها على واجهة محل الكتب ، كما يلاحظ انتفاء حضور الأدب العربيّ في مكتبة عرّاب حركة عدم الانحياز رغم العلاقات الديبلوماسية الطيبة التي تربطه بالزعماء العرب غير أنّ هذه الودّية تتبخّر إذا تعلّق الأمر بمقوّم اللغة وفي ذلك تعبير صارخ عن الهوّة الكبيرة بين الأنا و الآخر المنتميان للعالم الثالث و خسف قيمة النتاج العربيّ الزخم الذي يشهد له بنو جلدتهم بالتّميز ما جعل بعضهم يقبلون على دراسته كفيكتور هوغو الفرنسيّ المنصب على تحليل شعر المتنبيّ، فولتير و تأثره العميق بألف ليلة وليلة، ناهيك عن المستشرقين الذين كرّسوا حياتهم للاطلاع على خبايا هذا الأدب والاقرار بعبقرياته.

الأبعاد التي تأخذها الأنا الجزائري/الغير

كانت العلاقة بين الأنا الجزائريّ مع الآخر حسب رأي بشير بويجرة (محمد، صفحة 54)على مدى الأزمنة التاريخية لا تبنى على أساس العلاقات الإنسانية العادية من تجارة وتبادل ثقافي ورحلات، ولكنها كانت تبنى على أساس الرغبة الجامحة لدى الآخر في السيطرة على الأنا الجزائري، وكان كلّ ذلك قد رسّخ علاقة مأساوية تراجيدية بين الذات الجزائرية وبين الآخر وهذا ما يفسّره ضمّ العثمانيين للجزائر كثان أقوى إيّالة ثبتت دعائم ملكها بعد مصر، غير أنّه كانت هناك بعض التّحفظات على الحكم التّركي يتجسّد في منع الجزائريين من تقلّد مناصب إدارية مرموقة في الدولة، ناهيك عن التّصنيف العنصري المنتصر للجنس التركي (أتراك، كراغلة، جزائريين)، كلّ هذا وذاك نسج شبكة دلائل توحي بعزل تامّ للأنا الجزائري لضمان خضوعه وعدم استقلاله بأرضه خاصة وأنّ التواجد العثماني قد بدأ بحماية الدولة الزيانية من التّحرشات الاسبانية لتضلّ صيغة الحاكم والمحكوم سارية المفعول حاصرة ممارسات الجزائري في حيّز ضيّق ، هذا الأخير قد امتلأ دربه إلى المكانة التي يتبوأها بدله الآخر بالعار لعدم مقدرته على استرجاع ماهو أولى به من غيره، عدم الاستحقاق والاتكالية و كثير من المشاعر السلبية التي تُطبع على قلبه فيحبط الأنا الجزائري ويتغيّر مساره ليصبح مجرّد عالة تتغذى على ما يلقى إليها، ولا يمكن تحميل الآخر المسؤولية كاملة حين يرضى الأنا بالاستعباد و يألفه ما يحول دون تزحزحه و التحاقه بمن لم ينصاعوا للقالب العالمي المبني على الثنائية غالب/مغلوب، هذا الأخير قد أباح للغربيّ استغلاله ماديا ومعنويا حيث يظهر له في صورة ساذجة لا تقوى على الانتفاض الدائم وتحتكم لنوبات غضبها في سبيل التطور في حين أنّ الازدهار مربوط بالحكمة و الرصانة و تحكيم المنطق قبل العاطفة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى وبالعودة إلى الوقائع المأساوية المارة على الذاكرة الجزائرية في التّسعينات من تهالك الأنا الجزائري جراء تصارعه مع الأنوات الأخرى الجزائرية التي أبانت عن علاقة ندّية تنافسية بينهما حيث تحوّل الأنا إلى مسخ يسير بوقود الانتقام بالتذبيح ونشر الآفات كالفوضى، السرقة، وهو انتقام من الذات نفسها لكونه سيزجّ في السجن أذا تمّ القبض عليه، وانتقام من الآخر ببثّ الرعب واللاطمأنينة في الوسط الاجتماعي الجزائريّ، وكلّما فقدت الأنا إحساس الأمن كلما زاحمت الآخر في رقعته ومحيطه الأمر الذي يشدّ سدول التوتر بينهما ويمطّ من زجر الآخر للأنا.

روّج الآخر فكرة عن الأنا تتمثل في كونه خادما له في أرض لا تمت له بصلة، خاو عقليا وحضاريا مع اسناد مهمة تقديم موارد وطنه الذي لا يقدّره ويرجو الرحيل عنه والتنقيب عنها لأن سيّده يحتاجها في تحريك دواليب اقتصاده، وإن تجرأ وفكّر سيقتل بطرق

شتى إمّا ستلفّق له تهمة المساس بالاستقرار العالمي وانتهاك حقوق الإنسان فيعاقب بغير ذنب أو سيبثّ له سموما منقعة تجعل الاضطرابات تنخر بلاده داخليا فيقتل بفعل الحروب الأهلية واستفحال الإرهاب فيها، (إذ يرى حسن حنفي أن ظاهرة الانفتاح على الغرب تحولت إلى استلاب وتقليد أعمى فحساس الآخرين بالنقص أمامه كونه المعلم الأبدي وباقي أطراف العالم في موقع الهامش إزاءه حيث تمّ تحويل ثقافتنا إلى وكالات حضارية و امتداد لمذاهب غربية) (عطية، 1997، صفحة 26،27)

خاتمة:

استنادا على ما سبق تحليله يمكن الخروج إلى النتائج التالية:

- قدّم خطيبي وثيقة إنسانية ونموذجا تضامنيا أراد من خلاله تعزيز إحساس القارئ بمعاناة الآخر فرغم كلّ التباينات بيننا يبقى البلقاني ضحية حرب شوّهت كيانه شأنه شأن الأنا.
- لم يتطرّق خطيبي إلى أية مؤشرات تجعل المتلقي ينحاز لأحد الطرفين، فقد حمّل روايته هموما يشترك فيها الآخر مع الأنا.
- مهما ارتقى الآخر إلى أقصى درجات التطور في شتى المجلات غير أنه ينبغي تحجيمه ووضع ضوابط للاستفادة بما هو مفيد والإقلاع عن تقديسه والخنوع له.
- إن ما يحتاجه الانا هو تحويل إحياء أمجاد أجداده وتحويل هزيمته إلى انتصار على أرضية الواقع.
- للثقافة سلطة مهيمنة تحول دون عزل الأنا عن غيره حيث تنهض به إلى الوقوف على أهمّ مخرجات الآخر الغربي للاستفادة منها بموضوعية حتى تثبت وجودها وقدرتها على توليد الجديد والمثاقفة. والابداع.
- لقد حمّل الكاتب المشاهد الرحلية المرصودة أبعادا ودلالات إيديولوجية تبرز عواقب الانقسام والتّشتت.

–دفعت سراييفو وغيرها من مدن البلقان الثمن غاليا وتحمّلت تبعات انفصالها عن يوغسلافيا بحرب لم تضع أوزارها إلا بعد تفكيك أوصارها فصارت مضطرة إلى الاعتماد على إمكانيات غيرها للاستمرار.

المصادر والمراجع

- أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر (قراءات نقدية في فكر حسن حنفي)، دار عبد ربّه للطباعة، الحوامدية، ط1، ص75
- المرجع نفسه، ص 27/26
- بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، الأردن، ص119.
- بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانا الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، دار تيفتيلت، ص 54
- سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، ص19.

References :

-
- *Aḥmad ʻAbd al-Ḥalīm ʻAṭīyah, jadal al-anā wa-al-ākhar (qirā'āt naqdīyah fī fikr Ḥasan Ḥanafī), Dār ʻAbd rbbh lil-Ṭibāʻah, alḥwāmdyh, Ṭ1, 1997*
- *Bassām Mūsá Qaṭṭūs, Sīmiyā' al-ʻUnwān, Wizārat al-Thaqāfah, al-Urdun, Ṭ1, 2001*
- *Saʻīd Khaṭībī, Janā'in al-Sharq al-multahībah Riḥlat fī bilād alṣqālbh, Dār al-Suwaydī lil-Nashr wālttwzyʻ, al-Imārāt, Ṭ1, 2014.*
- *Bashīr Būyjrah Muḥammad, al-anā wa-al-ākhar wrhānā al-huwīyah fī al-Manẓūmah al-adabīyah al-Jazā'irīyah*